

# أَفَانِيْز

فِي اللُّغَةِ وَالْأَدَبِ وَالشَّقَافَةِ



أَعْمَالُ مُنْهَادَةِ الْأَسْتَاذِ الدُّكْتُورِ

صَالِحِ أَرْوَكَايَ

تنسيق:

د. رَابِعَةُ سَوَّاسِي وَد. مَصْطَفَى مَامُونِي عَلَوِي

## مخطوطات الصحراء والساحل المهملة أو المهددة بالاندثار

أتيليو غاوديو

ترجمة وتعليق: د. المهدي السعيد

جامعة ابن زهر - أكادير

### مقدمة:

صادفت خلال بحثي في مجال التراث المغربي المخطوط، هذه المقالة<sup>(1)</sup> المهمة للباحث والصحفي الإيطالي الشهير أتيليو غاوديو، وقد استرعى انتباهي ما ورد فيها من معلومات عن خزائن المخطوطات في الصحراء المغربية، خاصة في منطقتي طاطا وأقا وفم زكيز، والمعلومات القيمة التي عرضها عن بعض تراث المنطقة، كما أثارني الحماس الذي تحدث به الكاتب عن مجال المخطوطات في صحراء غرب إفريقيا ومنطقة الساحل، وضرورة فهرستها وصيانتها وتيسيرها للباحثين حتى يستفيدوا منها، وعزمه تأسيس منظمة دولية يكون كل ذلك من مهامها، غير أن وفاته المفاجئة أوقفت كل تلك المشاريع الطموحة.

كما دفعني ما حفل به المقال من معلومات دقيقة، ورؤى معرفية، ومنهجية واضحة، لترجمته إلى اللغة العربية، إسهاما في النقاش الذي انطلق منذ عقود وما زال مستمرا حول المخطوطات، وسبل صيانتها، وحفظها وفهرستها، وإتاحتها للباحثين، للاستفادة منها، وإخراج ما تحفل به مآثر التراث الغني الغميس.

نشر هذا المقال ضمن أعمال أربع ندوات أشرف الأستاذ غاوديو على تنظيمها، ودعوة الباحثين والمهتمين الأوربيين والأفارقة لحضورها، وإغنائها بأبحاثهم ودراساتهم، وشارك بها بأبحاث دقيقة رصينة، منها هذه المقالة، التي يشرفني أن أسهم بها في هذا الكتاب التكريمي لأستاذنا الدكتور صالح أزوكاي، وهو المهتم بالتراث وبالمخطوط، وكل ما يتعلق بهما، راجيا أن يكون عرفانا بالجميل من أحد تلاميذه الأوائل بالكلية

(1) ترجم هذا المقال بإذن خطي خاص من السيدة إيميليا كريسبي غاوديو، أرملة الكاتب وصاحبة حقوق المؤلف.

في الفوج الأول لشعبة اللغة العربية للسنة الجامعية 1984-1985، وتعبيرا عن الشكر الجزيل للمجهود الذي بذله في تدريسنا مادة النقد الأدبي القديم، في تلك الظروف الصعبة لانطلاق الكلية، غير أنها كانت مع ذلك انطلاقة طيبة رائعة بحضور أمثاله من الأساتذة العُزُر المتحلين بالصبر والمثابرة والتضحية، مما كان له أثر جميل في نفوسنا، ودفعنا للدأب في الدراسة والتحصيل، فله هذه التحية بمناسبة تقاعده الإداري، وتفرغه للبحث والتأليف.

ولا يفوتني أن أنوه في ختام هذا التقديم بالسيدة إيميليا كريسيبي كاوديو أرملة الأستاذ أتيليو كاوديو، المقيمة ميلانو بإيطاليا، التي وافقت - وهي مالكة حقوق النشر - على ترجمة هذا المقال ونشره باللغة العربية، وقد عبرت - عند اتصالي بها - عن سرورها بذلك، وعدته اهتماما بأعمال زوجها الباحث الإيطالي المرموق، الذي قضى طرفا من حياته بالمغرب صحفيا وباحثا منقبا، وكان يكن لبلدنا كل مشاعر المحبة والتقدير.

## 1. التعريف بالكاتب أتيليو كاوديو.<sup>(1)</sup>

ولد أتيليو كاوديو في 28 يونيو 1930 في فيرونا شمال إيطاليا، وهناك نشأ ودرس، ثم شارك بنشاط وهو شاب يافع في المقاومة أثناء الحرب العالمية الثانية في إيطاليا وفي إسبانيا، وبعد الحرب انتقل إلى باريز، حيث تابع دراسته في جامعة باريز، حتى حصل على شهادة دكتوراه السلك الثالث في العلوم الأنثروبولوجية، بجامعة باريز الخامسة، ثم شهادة دكتوراه الدولة في الأدب والعلوم الإنسانية، بجامعة السوربون بباريز، ودبلوم مدرسة الأنثروبولوجيا، من المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية بباريز كذلك، في تخصص إفريقيا الاستوائية.

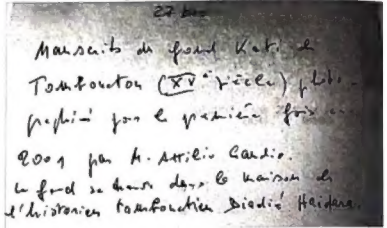
عمل كاوديو بالصحافة منذ عام 1954، واهتم بالمشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية للعالم الثالث، وبالضبط قارتي إفريقيا وآسيا، واهتم كثيرا بالمغرب، خاصة نضاله من أجل الاستقلال، وكان من الصحفيين المرافقين للملك محمد الخامس عند عودته إلى المغرب من النفي.

عمل كذلك مراسلا متجولا لوكالة الصحافة الإيطالية ووكالة أ.د.ن كرونوس، ووكالة الأنباء الإيطالية ANSA في باريز، وفي عواصم مختلفة في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، ثم صار منذ عام 1970، مراسلا رئيسيا لهذه الوكالة في إفريقيا. وكان متعاوناً مع عشرات قنوات الإذاعات والتلفزة والصحف والدوريات والمجلات العلمية في فرنسا

(1) توجد سيرة موجزة للكاتب ولائحة أعماله الكاملة على موقع الجمعية التي تحمل اسمه:

وإيطاليا وسويسرا وبلجيكا وإسبانيا ومصر ولبنان وإريتريا والمغرب وساحل العاج والولايات المتحدة الأمريكية، وإضافة إلى نشاطه الصحفي، قام بمهام علمية في المجالات الإثنولوجية والأنثروبولوجية الثقافية، وعرض نتائج أبحاثه في عدة مؤتمرات جامعية بأوروبا وأفريقيا وآسيا وأمريكا. كما كان من أبرز المتخصصين في الدراسات الأنثروبولوجية الصحراوية بغرب إفريقيا ومنطقة الساحل.

ترك أتيليو كاوديو مؤلفات عديدة منشورة في فرنسا وبلجيكا والمغرب وإيطاليا في مجالات الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا والتاريخ والمجتمع المتعلقة بأفريقيا وآسيا، وحصل على عدة جوائز أدبية وعلمية وشهادات تكريمية أكاديمية.



من بينها الوسام العلوي من درجة ضابط كبير.

إلى ذلك اختير منذ عام 1980 من قبل المعهد الدولي للأنثروبولوجيا في باريز لتسيير المركز الدولي لبحوث الصحراء والساحل (CIRSS)؛ ونظم لذلك عددا من المؤتمرات الأوروبية الأفريقية. كما عمل أستاذا للتاريخ والحضارة الإفريقية في مدرسة الأنثروبولوجيا بباريز. وعضوا مؤسسا لمركز دراسة الآثار الأفريقية بميلانو وعضوا منذ سنة 1993، في أكاديمية العلوم لما وراء البحار، ومراسلا دائما للمعهد الجغرافي العسكري في فلورنسا. وعضوا في جمعية المتخصصين في الثقافات الإفريقية، في باريز منذ عام 1958، وعضوا في جمعية الدراسات الأثيوبية، وفي جمعية رجال الآداب، ونادي المستكشفين بباريز، كما كان الرئيس الفخري لمؤسسة حماية تينيكوتو.

ألف أزيد من 44 كتابا، منها مؤلفات عن المغرب باللغتين الفرنسية والإيطالية، منها:

- A travers l'Afrique Blanche ; Ed. Julliard, Paris, 1955
- Le Sahara des Africains ; Ed. Julliard, Paris, 1960
- Rif, terre marocaine d'épopée et de légende ; Ed. Julliard, Paris, 1961
- Les Civilisations du Sahara ; Ed. Gérard, Bruxelles, 1967
- Allal El Fassi ou l'Histoire de l'Istiqlal ; Ed. Alain Moreau, Paris, 1971
- I Berberi ; I.G.M., Firenze 1971

- Sahara Espagnol, fin d'un mythe colonial ; Ed. Arrissala, Rabat, 1975
- Le Dossier du Sahara Occidental
- Ed. N.E.L., Paris, 1978 (Prix Louis Marin de l'Académie des Sciences d'Outremer)
- Maroc du Nord : cités andalouses et montagnes berbères
- Ed. N.E.L., Paris, 1981
- Fès, joyau de la civilisation islamique
- Ed. UNESCO-N.E.L., Paris, 1982
- Maroc Saharien : du Tafilalet au Rio de Oro
- Ed. Dessain et Tolra, Paris, 1985
- Sahara, 6000 anni; Ed. Moizzi, Milano, 1988; Guida al Marocco
- Guerre et Paix au Maroc : reportages 1940-1990 ; Ed. Karthala, Paris, 1991
- Sahara, città storiche da salvare; Ed. I.G.M., Firenze, 1992
- Les populations du Sahara Occidental ; Ed. Karthala, Paris, 1993
- Sud Marocco, Sahara Occidentale, Nord Mauritania : oasi e casbe da scoprire; Ed. Polaris, Firenze, 1997

توفي أتيليو كاوديو 12 يوليوز سنة 2002 إثر حادثة سير قريبا من فيرونا، وتواصل أرملته إيميليا كريسبي كاوديو، نشر أعماله، والتعريف بتراته التاريخية والأثروبولوجي والفكري عموما، خاصة في جمعية أسستها لهذا الغرض تحمل اسم زوجها، ولها موقع شبكي باللغة الإيطالية، على العنوان التالي:

[/https://associazioneargogaudio.org](https://associazioneargogaudio.org)

## 2. اهتمامه بالتراث المخطوط في الصحراء والساحل.

اهتم الباحث الإيطالي كثيرا بالمخطوط العربي الإسلامي خاصة في منطقة الصحراء والساحل، وذلك في إطار اهتمامه بتاريخ وثقافة ومجتمع هذه المناطق، وقد لفت انتباهه، منذ رحلاته الأولى خلال المنطقة، وفرة المخطوطات العربية، ووجود عشرات بل مئات الخزائن، وقد ساعدته جولاته الميدانية لزيارات كثير منها، والاطلاع على ما بها من مخطوطات كثيرة، ومعرفة الموضوعات والمجالات التي تناولتها، من علوم الدين والفكر والثقافة والتاريخ والتراث المحلي، وقام في سياق اهتمامه هذا، بتنظيم

سلسلة ندوات في المؤسسة التي كان يرأسها، وهي المركز الدولي لدراسات الصحراء والساحل (CIRSS) ما بين سنتي 1995-2000 بباريز، وهي: (1)

- الندوة الأوروبية الأفريقية بشنقيط موريطانيا في أكتوبر 1995.
- والندوة الأوروبية الأفريقية بميلانو في ماي 1998.

- والندوة الدولية بنواكشوط سنة 1999.

- والندوة الأوروبية الأفريقية بتينبكتو سنة 2000.

وقد جمعت البحوث التي أقيمت فيها وهي نحو 40 بحثا، ونشرت في سجل جامع بعنوان: «خزائن الصحراء، أبحاث ودراسات حول ألف سنة من الكتابات».

### *Les bibliothèques du Désert recherches et études sur un millénaire d'écrits*

وصدر ضمن منشورات المركز سنة 2002 بدار النشر الأرماتان بباريز، وقد تناولت تلك الأبحاث التعريف بالمخطوطات، وأماكن حفظها، ومشاكل صيانتها، والسياق الثقافي الذي وجدت بها، وتقديم مقترحات وحلول للمشاكل التي تعاني منها تلك المخطوطات. (2)

وقد أفضت هذه الندوات، والبحوث التي نتجت عنها، إلى ضرورة صيانة المخطوطات في منطقة صحراء غرب إفريقيا والساحل، والعناية بها، ومحاولة إنقاذها من الضياع، وقد ذكر الأستاذ أتيلىو غاوديو كما نرى في المقال الذي نحن بصدد ترجمته، جملة مقترحات لتحقيق ذلك، منها على وجه الخصوص إنشاء منظمة دولية متخصصة تسعى إلى العناية بالتراث المخطوط في تلك المنطقة، والعمل على صيانتها وترميمه من جهة، وإتاحته للباحثين لدراسته واستغلاله في الأبحاث العلمية، والمؤلفات الأكاديمية، وركز على وجه الخصوص على استقلال المؤسسة المزمع إنشاؤها عن الهيئات الثقافية الدولية التي تغلب عليها التعقيدات الإدارية، مما يمنع أو على الأقل يبطئ تحقيق الأهداف الفكرية والثقافية المطلوبة.

(1) - مقدمة سجل الندوات، ص: 7.

(2) Jean Poirier, « GAUDIO, Attilio, 2002, Les bibliothèques du Désert. Recherches et études sur un millénaire mis en ligne le 27 mars 2007, consulté le 10 février 2023. 2005 | 2-d'écrits », Journal des africanistes, 75

:URL

<http://journals.openedition.org/africanistes/151>

DOI: <https://doi.org/10.4000/africanistes.151>



### 3. نص المقالة مترجمة.

سأقتصر هنا على عرض نماذج مواقع لازالت بها حتى الآن مخطوطات قديمة لم يسبق تصنيفها ولا معالجتها، وهي مهددة بالضياع، وقد مكنني ملاك هذه المخطوطات من معابنتها خلال جولاتي الصحراوية الأخيرة.

في بوجيبا (تبعد 185 كلم إلى الشمال الشرقي من تينبكتو، عبر طريق غير معبد صعب السلوك، يقطع على الأقل في يوم كامل) تحتفظ أسرة من كل السوق بحوالي 600 مخطوط عربي، وهي محفوظة في قبو مسجد مغطى بالرمال، وحسب المعلومات التي استقيتها من عين المكان، فإن ثلثها تتعلق بالفقه والتاريخ الإسلامي، بينما تهتم بقيتها - وهي أكثر أهمية - بالصيدلة التقليدية الصحراوية، غير أن إمام المسجد رفض رفضا باتا اطلاعي عليها. وبالرغم من أن لا شيء نبت في هذه المنطقة، فإن أكثر من 2000 جمل ترعى بها باستمرار، ويملك سكان بوجيبا بعضها، بينما تعود ملكية بقيتها إلى مربي الماشية في أروان، التي تعد أهم مرحلة في طريق قوافل الملح (المعروفة بأزالاي) لم يتجاوز عدد المنازل التي أحصيتها في بوجيبا 10 منازل طينية، وحوالي عشرين خيمة، وأظن أنه ينبغي تكثيف البحث والتعرف على التراث المخطوط عند المرابطين والفقهاء (أساتذة المدارس القرآنية) بقبائل كل السوق، وهم ملاك المعرفة والتقاليد الثقافية والدينية في كل الشمال الشرقي المالي، وقد أخبرني صديقتي تيتا التي جمعت مكتبة صغيرة، بوجود مخطوطات عند أعضاء أسر الطوارق في أدرار وإيفوغاس، ويتعلق الأمر - بصفة أدق - بكتب تملكها عائلات من منطقة تاماراضات (تقع على بعد 80 كلم من كيدال) وكذلك حارس مسجد تين إيساكو<sup>(1)</sup> (على بعد 40 كلم) أما موريطانيا التي يتجاوز بها عدد المخطوطات من حيث الأهمية والكمية، كل مناطق الصحراء المدارية والساحل، فأشغال الاستكشاف والمحافظة التي بذلها الباحثون والمتخصصون بدأب ونجاح سواء كانوا موريطانيين أو أجانب - ستهز الندوة جهودهم - تركزت على ما يظهر، حتى الآن على الوثائق المتأتية من المدن القديمة التي أعلنتها اليونسكو تراثا إنسانيا جديرا باليانة، وهي: شنقيط وودان وولاتة، بينما تظل المدينة الرابعة مهمشة، وهي تيشيت، المعروفة بالمدينة الميتة، وينبغي أن نشير إلى أن الوصول إليها غير ميسر، وأن اجتياز الهكار، غير مشجع للذين هم مثلي، ممن يفضلون الطرق البرية على رحلات الطائرة النادرة وغير المضمونة المنطلقة من نواكشوط، غير أن الوصول إلى هذا السراب من الحجارة الصحراوية، حيث يتشبث ألف من السكان بالحياة، وبذكريات ماض ثقافي مجيد، إضافة إلى ما يتسمون به من كرم الضيافة، كل ذلك يؤجج العواطف، لقد كانت تيشيت خلال عدة قرون

(1) تصحفت عند المؤلف إلى: تيم إيساكو.

مدينة مشهورة في العصور الوسطى في كل صحراء الغرب بالإسلامي بعلمائها وتجارها ، وكان في كل منزل منها مكتبة، وكانت كل أسرة منها مستتبنا فكريا.

لقد جلب غناها وازدهار قوافلها التجارية، العلماء والطلبة من كل جوانب الصحراء الموريتية، وأخرجت أجيال منهم عددا من النساخين، فيما كانت القوافل التجارية تحمل إلى هذه المدارس التي أضحت مشهورة، كتباً بكميات وافرة، كان مصدرها كبريات المدن الأندلسية، وشمال إفريقيا والشرق الأوسط، ومع أن تيشيت اليوم مدينة نائمة اقتصاديا واجتماعيا، فإن منازلها الآيلة للسقوط، التي زحفت عليها الرمال، مازالت تحتضن 7000 مخطوط من كل العصور، وفي شتى التخصصات، أما أحوال حفظها فهي مختلفة، وتتوقف على الاهتمام والعناية التي يستطيع شيوخ العلم في المدينة تخصيصها لها، وفي نواكشوط أخبرت بأن محمد ولد [الندي] (1) وهو باحث في معهد البحث العلمي بموريطانيا سيعمل في مشروع تصنيف وتصوير أهم خزائن تيشيت إن شاء الله ! وعندما نتجه شمالا على متن الحصان إلى منطقة تيرس زمور، بين موريطانيا والصحراء المستعمرة الإسبانية السابقة الموجودة الآن تحت الإدارة المغربية، فإننا نجد بعض مخيمات الرّحل الباقية مازالت تملك مخطوطات، لمن كانوا يدعون «علماء تيرس في القرون الثلاثة الأخيرة»، وفي كل الأحوال فإن أهم ما في هذا الكنز الثقافي للصحراء الغربية (2) فيما قبل الاستعمار، يوجد متفرقا بين بعض الأسر والمساجد الموريتية في الداخلية والعيون والحكومية وأكلميم، وقد تكون عشرات منها في القرويين بفاس، فمن هم المؤلفون المجهولون لهذه المؤلفات؟

لقد ظهر مفكرون ذوو ثقافة كبيرة بين القبائل المرابطية (رجال الكتب) خلال عصرهم الذهبي بين القرنين 18 وبداية 19، كالشيخ محمد ولد محمد سالم، الذي كان مؤلف كتاب عظيم في القوانين العرفية (العادات) والفقه المالكي والمكون من 10 آلاف صفحة؛ وامحمد ولد الطلبة، الذي كان شاعرا كبيرا ونحويا، ولمّجّدي (3) بن حبيب الله الذي كان شيخ عميد جامعة القرويين بفاس، وفي أخريات حياته كان يدرس بالجامع الأزهر بالقاهرة، وقد حصل كل معارفه بتيرس؛ والشيخ محمد المامي الذي كان جغرافيا كبيرا، وجمع كثيرا من نصوص الإنشاد الصحراوي في عهده، غير أن أهم مؤلفاته هو كتاب البادية، وهو موسوعة حقيقية واصفة لمناظر الطبيعة وعادات وتقاليده كل القبائل الصحراوية. (4)

(1) سقطت بقية اللقب من الأصل، وقد سألت أرملة المؤلف السيدة إيليا كريسي كاوديو فأفادتني باسم البحث الكامل، الذي سبق له المشاركة في ندوة مخطوطات شنكيط بموريطانيا سنة 1996، ونشرت بالمجلة الجديدة للأنثروبولوجيا، وأفادتني بذلك مشكورة في رسالة بريدية شكية يوم 2023/02/11.

(2) يستعمل المؤلف هنا مصطلح الصحراء الغربية بمعناه الجغرافي حيث يقصد بها الصحراء المغربية الممتدة من أكلميم حتى الكويرة، ثم موريطانيا، بينما يقصد بالصحراء الوسطى التي سيورد الحديث عنها فيما بعد، مالي والنيجر.

(3) تصحف عند المؤلف إلى سيمديري.

(4) كتاب البادية، هو كتاب يعالج مشكلات الحياة البدوية من الناحية الفقهية، فيحاول تقديم أجوبة للنوازل المرتبطة



لقد دَوَّن كل الأدب الصحراوي في هذه المرحلة بالحسانية، وكان محفوظا بالرواية الشفوية، في المنظومة الطويلة المسماة الجنة، وأفضل الشعراء المعاصرين ينتمي إلى أولاد تيدرارين، وهو الرويجل ولد محمد مبيريك المقيم ببوجدور.

ويزودنا أحمد بابا مسكه المنتمي إلى القبيلة المثقفة لأهل باريك الله، بمعطيات مفيدة حول أرسنقراطية الفكر لدى صحراوي تيرس، ويخبرنا من بين ما يقدمه من معلومات عن « إِيْغِيُوْ من تاكانت المقيم بأدرار، وسادوم أكبر الشعراء الحسانين في كل العصور، وهو سليل أسرة مجيدة من إِيْكاوُون... وخلال جولة له في الساحل، استقبل سادوم ولد أبا استقبالا حافلا من قبل الرقيبات، الذين غمروه بالهدايا، فغنى بكرمهم في قصائد كثيرة، يواصل ابنه وأبناء أخيه نشرها، خاصة المغني الكبير سيداتي ولد أبا.

ويعد أهل باريك الله نموذجا مركبا، إذ يتعلق الأمر بقبيلة كبيرة من القبائل المرابطية، غير أن تأثيرها تجاوز كثيرا الحدود المرسومة عادة لقبائل المتعلمين، إنهم لا يحوزون جماعة من الحراطين (المحررين) والعبيد مثل الزوايا الكبيرة الأخرى وحسب، ولكن قلة من المحاربين لديهم قدر مماثل من الخدم (الأتباع) عبر الساحل كله والإمارات المجاورة حتى الحوض، إن هذا التأثير ذو أساس روحي فكري، ولكنه كذلك اقتصادي وسياسي. فهذه القبيلة مثلا هي التي حفرت غالب الآبار في الساحل، خاصة في تيرس، دون أن تحمل السلاح، معتمدة على عدة قبائل محاربة، تربطها معها علاقات متينة، وبعضها من قرابتها، مثل: أولاد اللب<sup>(1)</sup> (كانوا لمدة طويلة الجناح الحربي للقبيلة، أو ذراعها الدنيوية) وأولاد دليم، والكراع،<sup>(2)</sup> أما علاقتهم بأولاد أبي السباع فكانت متسمة بالصراع بالرغم من كونها متينة، كما عقدت موافق تحالف مع قبائل الساحل البعيدة (الكركيات، والزركيين) ومع الإمارات المجاورة.

وما يزال الشعر أفضل شاهد على هذه الأوضاع الاجتماعية، لذلك فإن محمد عبد الله ولد البخاري ولد الفيلاي أفضل من بين الوضع الاجتماعي لقبيلته، ويعد مع الشيخ محمد المامي ومحمد ولد الطلبة، من كبار زعماء تيرس، إذ كان في الوقت ذاته عالما شاعرا وصوفيا سياسيا، إلى ذلك فإن بعض فرق تدغة، مثل أهل محمد سالم ( وهم قبيلة عالمة) وكذلك إيد أيوب من بني عمومة أهل باريك الله، صنعوا لتيرس مجدها العظيم، ومنهم محمد ولد الطلبة وشعراء وعلماء آخرون، غير أننا لا نفصح عن كل شيء إذا صنفنا أي قبيلة بكونها محاربة أو متعلمة أو خاضعة ذليلة،

بالحياة الصحراوية، وعادتها وتقاليدها وأحوال الحياة الصعبة بها، وخلال ذلك يقدم معلومات غاية في الأهمية عن المجتمع والمجال والثقافة. الخ، « الشيخ المامي وكتابه البادية»، لرشيدة برباط، على الرابط التالي: <https://cutt.us/qorZN> (نظر 2023/02/11)

(1) تصحفت عند المؤلف إلى أولاد اللج.

(2) في الأصل Gueraz، وأشكر الأخ الفاضل الأستاذ محمد علي أمسين على مساعدته في تصحيح التصحيف.

أو أنها في الآن نفسه قبيلة مرابطية محاربة، أو خاضعة مقاتلة، أو أحيانا مدجنة، فهذه الأوصاف ليست دقيقة، إذ تنقسم كل قبيلة إلى أقسام عديدة.

فالطبقة المرتبطة تلقائيا باسم القبيلة هي التي تكون نواتها الأساسية، وتمنعها سميتها الغالبة، وحول تلك النواة تلتئم فئات أخرى، خاضعة وغير بارزة، (في حال كونها قليلة العدد، بحيث لا تستطيع الانضمام في كيان مستقل، متمتع بأدنى قدر من الاستقلال) مكونة من حرفيين وحراطين وعبيد، وليس من الضروري أن تتوفر كل قبيلة على أتباع خاضعين وحرفيين، ولكنها تمتلك دائما عبيدا وحراطين بأعداد متفاوتة، أما معرفة الأنساب، والعادات والسلوك الاجتماعي، فعميقة ودقيقة، بحيث يكفي أن يذكر المسافر القادم من الطرف الآخر من الساحل، بل حتى من بلاد أخرى مجاورة، اسم قبيلته حتى تُستشف باقي المعلومات، فيعرف أصله وتحدد العائلة التي ينتمي إليها.

وقد تشرفت سنة 1978 باستقبال جماعة أولاد تيدرارين لي ببوجدور في جمع غفير من الناس، وتمكنت خلال ذلك من الاطلاع على وثائق تاريخية مصونة جيدا من بينها أصول ظواهر (مراسيم ملكية مغربية) مؤرخة في القرن 19 سفرت بجلد الجمل.

كما أنني انتقلت إلى الحكونية (على بعد 95 كلم شمال شرق العيون) حيث مكثت في هذه الزاوية العلمية التي كانت بها قبل الاستعمار إحدى أغنى الخزائن الإسلامية في الغرب المغربي، ويعد الشيخ أحمد بن سيدي محمد بن سيدي بوبكر (الفقيه)، رئيس زاوية الحكونية، ورئيس الجماعة القروية، سليل مولاي علي الشريف الفيلالي «الفيلاليون» - كما اشتهر - قدموا من الصحراء قبل 3 قرون، واستقبلتهم كل القبائل العربية بحفاوة، خاصة بني منصور الذين انقضوا تماما اليوم بسبب الهزائم التي ألحقها بهم «أمعر»<sup>(1)</sup> وهم قسم من أولاد الدليم.

بقي الفيلاليون قرنا كاملا ببوكراع ثم صعدوا إلى الحكونية، وتبعهم الزرغيون، وكان سيدي أبوبكر مؤسس زاوية الحكونية، ومذ الفقهاء الفيلاليون بعد ذلك تأثيرهم وإشعاعهم الثقافي والفقهي إلى كل الصحراء، من وادي درعة حتى تيرس، كما احتجنا وظائف القضاء والتعليم، وقام المرابطون الفيلاليون بتقييد مختلف المعارف الشرعية، والعلوم التي كانوا يدرسونها في مخيماتهم المتنقلة، أما حاليا فإن غالب المؤلفات المطبوعة والمخطوطة توجد بأكلميم بخزانة الحكونية، التي تعرضت لقصف وتدمير المدفعية الإسبانية إبان حرب التحرير سنة 1957، ولغاية الآن فإن غالب معلمي القرآن في الصحراء الغربية مازالوا من الفيلاليين.

ولنتقل الآن إلى المغرب شبه الصحراوي وبالضبط إلى الحوض السفلي لوادي درعة

(1) انظر حولهم معلمة المغرب 7615/22.

الذي شهدت ضفتاه منذ مرحلة ما قبل التاريخ على طول 750 كلم توالي مراكز ثقافات وحضارات متعددة، خلفت لنا متحفا حقيقيا مفتوحا، للنقوش الصخرية، والمقابر المنتمة لما قبل الإسلام، وفي الوقت نفسه يحتفظ السكان والزوايا الحالية بعدد غير محدد من المخطوطات العتيقة والكتب الحديثة، مازال قسم منها مجهولا لدى الباحثين المختصين، وبعيدا عن فهارس المكتبات المغربية، وقد كنت بصراحة مندهشا من وجود مئات المخطوطات عند الأسر بطاطا، وقصور واحاتها الفسيحة، وكانت تنتقل بعرض شديد من جيل لآخر، باعتبارها تراثا عائليا خاصا، وهي في غالبيتها مؤلفات ونصوص تاريخية أو دينية: من مصاحف وكتب حديث وسيرة الرسول محمد [صلى الله عليه وسلم] وقواعد اللغة العربية، ومن بين المؤلفات الأكثر نفاسة يمكن أن نشير إلى تاريخ سوس للحضيكلي من القرن 12 للهجرة، المحتوي في فهرسه على أسماء جميع علماء المنطقة، كما نجد مجموعة ضخمة من ظواهر السلاطين العلويين (خاصة مولاي إسماعيل) موجهة للرؤساء السياسيين والإدرايين (القواد) بواحات آقا وتيسينت وفم زكيض، وللخلفاء (ممثلي السلطان) والرؤساء الدينين لكبرى الزوايا، وضمنها زاوية مغيميمة، غير أن المخطوط الذي يعده أهل طاطا كنزا لا يقدر بثمن، هو تقييد تاريخي يعود لسنة 563 للهجرة، (القرن 11 من التقويم الميلادي) نسخ على رق الغزال، ويحكي وقائع وصول المرباط سيدي أحمد بن محمد النخيلي إلى مكناس، ثم توقفه بفم زكيض قبل أن يستأنف سفره نحو الصحراء الغربية وشنقيط بموريطانيا، وذكر الإخباري المجهول محرر النص قبل ألف عام، أن سكان واحات درعة أهده أراضى مسقية، ومنحوه عبيدا، حتى يشجعوه على الاستقرار الدائم بفم زكيض، وهذا ما حدث فعلا.

وعلى بعد 10 كلم جنوب غرب طاطا على الطريق المؤدية إلى آقا، توجد طريق فرعية غير معبدة، ولا ظاهرة، يصل طرف منها عبر الركن (الصحراء الصخرية) إلى قصر تازاين والطرف الآخر إلى قرية جباير،<sup>(1)</sup> أما القرية الأولى فهي مكونة في غالبيتها من قصبة مطلة على بساتين نخيل، وقد سكنتها منذ القدم جماعة يهودية نشيطة، وهناك نزل المستكشف الفرنسي - الذي ترهب بعد ذلك - شارل دوفوكولد سنة 1909 متخفيا في صفة تاجر يهودي، أما القرية الثانية فهي مدرج جاثم على جرف صخري بازلتي، وهو الآن مهجور، وكان منطلق عدد كبير من القوافل العابرة للصحراء حتى بدايات القرن 20، وقد تمكنت من زيارة فُنْدُق القوافل وهو سليم تقريبا من الخراب، ويتميز بهندسته المغربية الجميلة، وتفاجأت عندما عُرض عليّ مخطوط عربي، في ملكية أسرة قدماء التجار، قيدت به تفاصيل تجارة القوافل مع إفريقيا السودانية، ومع التجار الكبار من الشمال مثل تارودانت ومراكش وتافيلالت وتلمسان، وحسب

(1) تصحفت عند المؤلف إلى جباير Tbaïr.

الترجمة الكاملة التي قدمها لي بكل ود مندوب وزارة السياحة بإقليم طاطا، فإن هذه الوثيقة تذكر كل المواد المنقولة من الشمال نحو الجنوب، إضافة إلى المنقولة من إفريقيا السوداء بواسطة القوافل نفسها، مع بيان أسعار شراء وبيع كل سلعة على حدة، وقيمة حمولة كل جمل.

كما أن الوثيقة تذكر من بين ما تذكره الكتب المطبوعة بفاس أو المستوردة من الشرق الأوسط، وكانت أثمانها تؤدي ذهابا من طرف جامعة سانكوري، والأسر العاملة بتينبكتو، وكذلك بشنقيط بموريطانيا.

وإذا انتقلنا 60 كلم إلى الشمال الغربي من طاطا، سنكتشف واحة أقا الرائعة، مهد الدولة السعدية، والوريث الثقافي لمدينة تامدولت المجاورة، التي اختفت نهاية القرن 8 للهجرة/15 للميلاد، وكانت أقا كذلك على طريق القوافل الرابطة بين مراكش وتينبكتو، وقد أكد لي قائد الملحقة في يناير الماضي أن كثيرا من الأسر المستقرة بالقرى العتيقة للواحة لازالت تحتفظ بمؤلفات مخطوطة ومطبوعة، لم يقع أبدا جردها.

كما أن هناك مئات من المخطوطات تنتظر التعريف بها بقرى واحة تيمالت بحوض تمنارت بين فم الحصن وبويزكارن، جزء منها محفوظ بالزاوية التي أسسها العالم والولي الصالح امحمد [بن] إبراهيم الشيخ الذي كان يحرر لطلبته ملخصات في النحو والادب العربيين كما ترك أيضا مؤلفات في العقيدة والتصوف والتشريع، أما ولده ومريده ابن<sup>(1)</sup> إبراهيم الشيخ التمنارقي (توفي سنة 971هـ / 1564م) فقد حرر أيضا مؤلفات في النحو العربي والفقه الإسلامي والتاريخ الديني،<sup>(2)</sup> ولحسن الحظ فإننا نجد قائمة أساسية لمؤلفات تمنارت في المعسول وسوس،<sup>(3)</sup> للمؤرخ المختار السوسي.

وفي الرباط أراني مدير المكتبة العامة السيد التوفيق بقسم المخطوطات جذابات 7 مؤلفات لأحمد بابا محفوظة بحالة جيدة، ومقيمة بالفهارس ومتاحة للباحثين، ولن أتحدث هنا عن المخطوطات الواردة أو المتعلقة بالصحراء، المذكورة في فهارس المكتبات المغربية الأخرى، ومن بينها المكتبة المشهورة لزاوية تامكروت بالحوض الأعلى لدرعة، المدرجة والموصوفة بدقة منهجية في المؤلف القيم للسيدة لطيفة بنجلون العروي، «مكتبات المغرب» المنشور بباريز سنة 1990 بعناية دار نشر ميزونوف ولاغوز.

وقد أخبرتنا السيدة لطيفة بنجلون أن نص عرضها سيرسل إلى باريز ليكون ضمن أعمال الندوة، وكذلك السيد إسحاق ماغا، المسؤول عن قسم المخطوطات بمعهد

(1) وهم المؤلف في اسم الشيخ التمنارقي وولده، فالشيخ هو امحمد بن إبراهيم الشيخ التمنارقي المتوفى عام 971هـ أما ابنه فهو إبراهيم بن امحمد بن إبراهيم، وقد توفي قبل والده بضعة أشهر، انظر المعسول 46/7.

(2) يقصد غالبا السيرة النبوية.

(3) يقصد كتاب «سوس العاملة» لمحمد المختار السوسي.

العلوم الإنسانية بجامعة نيامي، الذي اعتذر عن السفر إلى ميلانو، وأخبرنا بإرسال مشاركته لنشرها ضمن أعمال الندوة.

وقد ورث معهد العلوم الإنسانية المذكور (IRSH) مجموعة مكونة من حوالي 3500 مخطوط وكتاب عتيق بالنيجر، جمعها المأسوف عليه بوبو هامبا الذي كان رئيس الجمعية الوطنية، وكان باشر قيد حياته عملاً دائماً للبحث عن التراث المكتوب وتصنيفه، بعد أن كان منسياً بقرى ومخيمات مختلف المجموعات العرقية في وطنه.

إننا ونحن نتتبع هذا المسار للمواقع المحفوظة بمخطوطات الصحراء والساحل غير المعروفة بما فيه الكفاية، نشير إلى مجموعة بن حمود للمخطوطات بتينكتو، المحفوظة بالمكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة، ومجموعة أرشينارد بالمكتبة الوطنية الفرنسية، حيث جُردت بعض مخطوطات مالي، ومجموعة جيرانكور ذات المخطوطات العربية من منطقة الساحل، التي يمكن الاطلاع عليها بمكتبة معهد فرنسا.

وأود أن أشير إلى المخطوط الذي عُثر عليه بقسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية الفرنسية سنة 1982، بعد أن ظل منسياً مدة قرنين، ويكشف عن الرحلة التعيسة لضابط فرنسي من الإدارة العسكرية الملكية للمستعمرات وهو السيد بريصون الذي تحطمت السفينة التي كانت تقله، على الشواطئ الموريطانية، خلال سفره سنة 1875 في مهمة إلى السنغال، فوقع أسيراً لدى القبائل المورورية، إنها 175 صفحة مذهشة بوصفها للأماكن والسكان الرحل للصحراء الغربية من موريطانيا حتى المغرب، وأنا مدين بالجميل للمنشورات اللاتينية الحديثة لنشرها النص الكامل للرحلة مع تعليقات توضيحية سنة 1984، وسأقدم تفاصيلها خلال أعمال الندوة.

إضافة إلى ذلك فبالمكتبة الوطنية الفرنسية النص الكامل باللغة اللاتينية لحكاية « رحلة إلى توات » للتاجر الجنوبي أنطونيو مالفانت المؤرخة سنة 1447، وقد ترجمت إلى اللغة الفرنسية بعناية شارل دو لا رونسيير وإلى الإيطالية بفضل الأستاذ رومان راببيرو من جامعة ميلان، وأشير إلى المعلومات التي قدمها أنطونيو مالفانت حول هذه المنطقة من الصحراء الوسطى، التي كانت كذلك خلال العصور الوسطى مركز مملكة يهودية، وقد سمحوا للجنوبي أكوستينو دا نولي سنة 1457 بوضع خريطة لمراحل التغلغل التجاري الإيطالي في الصحراء وإفريقيا الغربية، وهي محفوظة بقسم الخرائط البرية والخرائط الملاحية، بالمكتبة الوطنية لفلورنسا، غير أننا نعرف أيضاً بفضل خريطة جيوفاني ماورودا كارينيانو (ق10) المحفوظة بوثائق الدولة بفلورنسا ( بقصر أوفليزي ) بأن جماعة كبيرة من التجار الجنوبيين كانوا مستقرين بسجلماصة، وكانوا يتحكمون في جزء من التجارة العابرة للصحراء مع إمبراطورية غانة من جهة،

والمراسي البحرية المتوسطية وبلاد الفلاندرز من جهة أخرى، وسنعرض وثائق حول خرائط وعلاقة هؤلاء الجنوين بسجل ماسة خلال أعمال الندوة.

وقبل الختم أود أن أخبركم بإعادة اكتشاف نص بفلورنسا، ضمن مجموعة مخطوطات مكتبة ميديسيو لورينزيانا، التي أسسها آل مديشي بدير سان لورينزو، وفي المجموعة الخاصة للورد آشرنهان، التي اقتنتها الحكومة الإيطالية سنة 1884 وبها «مذكرات تاريخية» ورسائل التاجر والرحالة فلورينتتان بينيتوديني، أول أوربي وصل تينيكو حوالي سنة 1469م.

أرجو أن تعذروني لأنني أطلت كثيرا، وكنت في الحقيقة مضجرا، ولكن اسمحوا لي بإشارة مهمة أخيرة، وهي أنه لا ينبغي الاكتفاء بالحديث الأكاديمي عن المخطوطات القديمة التي يجب إنقاذها ونشرها، بل إن هذه الندوة ينبغي أن تذهب بعيدا في حل مشكلات إتاحة كل الوثائق التاريخية للباحثين حيث ما كانت، وصياغة ميثاق جديد للتعاون النشط بين الباحثين والمؤسسات الوطنية والدولية المتخصصة.

يتعلق الأمر بتجاوز الأساليب التقليدية للإعارة أو تبادل الوثائق المصورة على الأشرطة المصغرة أو الجذاذات الدقيقة، بتأسيس منظمة دائمة، متعددة الجنسيات، ذات رسالة ثقافية تدعمها مباشرة الدول المهتمة وكذلك المؤسسات.

هذه الهيئة التي لن تكون خاضعة للتقلبات المالية والتعقيدات الإدارية لليونسكو ولا للمركز الدولي لدراسة صون وترميم الممتلكات الثقافية (ICCROM) وستكون مهمتها الرئيسية، البحث وتحليل المصادر التي مازالت مجهولة لتاريخ الصحراء والساحل، وإعانة المؤسسات العلمية المحلية، وأصحاب الخزائن الخاصة، على الاضطلاع بترميم المؤلفات المتردية، وترتيبها وفهرستها، والسماح بتصوير مجموعات المخطوطات والوثائق التي نسيها أو أهملتها الدراسات التاريخية، بواسطة الأشرطة المصغرة. وأخيرا الاضطلاع بنشر أدلة قوائم المصادر أو الفهارس، ونشر متون النصوص القديمة لسكان الصحراء والساحل. وإنه عمل يمكن أن يشغل أجيالا كاملة من المؤرخين والمستعربين الأفارقة والأوربيين، غير أنه مفيد جدا ورائع من أجل صيانة التراث الثقافي للإنسانية.

ويمكن أن نعود من هذه الندوة راضين إذا نتجت عنها شرارة إرادة طيبة، شكرا لكم على الاستماع إلي.



خريطة أهم الأماكن الصحراوية التي توجد بها حاليا الخزانات الصحراوية

